الأدب الروسي .. وفن الكتابة الروائية

فيودور دوستويفسكي — افاناسي فيت

منذ العصر الذهبي والثقافة والحضارة الروسية أيام الإمبراطورة الروسية كاترين الثانية (1796 - 1762) وصولاً إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عاش الأدب الروسي شهرة عالمية يستحقها أقلامها ومازالت اليوم تتابع مسيرتها كما عهدها قراء وعشاق هذه الثقافة. عوضاً عن الروايات الرائعة ذات الأبعاد الفكرية والفلسفية والتربوية، والمصاغة بأسلوب فني مميز، مما جعل الأدب الكلاسيكي الروسي يحصل على موقع مميز في الأدب العالمي.

تطور الأدب الروسي من 988 - 1730

بدأ الأدب الروسي بتاريخ عظيم الأهمية بالنسبة للتاريخ السياسي والثقافي الروسي: إنه العام الميلادي 988، وفي ذلك الحين لم يكن ثمة أدب مكتوب في روسيا، لكن الأمير فلاديمير أرسى أسس ما نسميه الآن الأدب الروسي في العصر الوسيط، وإن لم يسجل هذا الأدب وجوداً حقيقياً أو فعلياً إلا بعد عدة سنوات لاحقة.

وكان معظمه في تلك الفترة دينياً على شكل مواعظ وأناشيد وسير للقديسين. وقد كتب رجال الدين الجزء الأكبر من هذا الأدب، وكانوا أيضاً قرّاءه. أما الأدب اللاديني فأهم عمل فيه هو التواريخ، إذ كانت عاصمة كل إمارة تحتفظ بسجل تؤرخ فيه الأحداث، وأهم أعمال تلك الفترة المبكرة القصيدة الملحمية النثرية (أنشودة جيش إيغور)، التي كتبها مؤلف مجهول في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وهي شعر منثور باللغة السلافونية القديمة، التي ظلت لغة الأدب حتى أواخر القرن الثامن عشر، وتشيد هذه القصيدة البديعة بفعال «إيغور سفياتوسلا فوفيتسن» حين هاجم كيومانيا.

وقد اكتشفت في عام 1795، ويعتقد البعض أنها منحولة، ومع ذلك فقد كان لها أثر عميق في الأدب الروسي. كذلك ظهرت آثار أخرى كثيرة باللغة السلافونية القديمة، منها حوليات تاريخية، وقصص تدور حول حكم التتار، وترجمات لآباء الكنيسة.

وفي أوائل القرن الخامس عشر ظهرت قصيدة «فيما وراء نهر دون» من تأليف سوفونيا الريازانية، وفيها وصف شاعري لمعركة كوليكوفو (1380)، يتضح فيه أثر قصيدة «أنشودة جيش إيغور». كذلك ظهرت في هذه المرحلة المبكرة «رحلة إلى ما وراء البحار الثلاثة»، وهي وصف للهند في الفترة (1466 – 1474) بقلم أثانازي نيكيتين. كما أن الرسائل المتبادلة بين إيفان الرهيب وصفيه القديم الأمير أندرية ميخائيلوفتش كوربسكي (الذي انضم إلى صفوف أعدائه) خلال الفترة بين (1528 – 1583)، تدل على براعة الأسلوب والقدرة على الهجاء اللاذع.

ومعظم الأدب الروسي القديم لم يكن من ما يمكن أن نعده قصصاً فنياً، بل كتابة وقائع الحياة الفعلية. وفي ذلك الزمن لم يكن الشعر الموزون معروفاً في الأدب الروسي وكان يأخذ الشكل الموسيقي للترانيم والتراتيل الكنسية وفي الشكل الشفوي الموسوق في الحكم والأمثال السائرة. وقد وفد الشعر المقطعي (الموزون) إلى روسيا من الغرب عبر أوكرانيا وروسيا البيضاء وبولندا.

بدايات الأدب الحديث في روسيا:

شهد القرن السابع عشر تحولاً جذرياً في الأدب الروسي، نتيجة ترجمة عدد كبير من الأعمال الأدبية الغربية وتقليدها. وظهر الشعر المقفى لأول مرة في روسيا. وكان أكبر كتّاب هذا الأدب الجديد أفاكوم، أحد رجال الدين المحافظين، الذي تميزت كتابته باللغة المعبرة والوصف الحي للحياة اليومية، كما أدخل الراهب سميون بولتسكي في الشعر نظاماً صادقاً، يعتمد على المقطع في الأدب الروسي.

وعمد القيصر بطرس الأول (الكبير) الذي بدأ حكمه عام 1682 إلى إدخال الطابع الغربي في الحياة الروسية، مما أدى إلى اكتساب الأدب الروسي صبغة غربية شاملة خلال القرن الثامن عشر. ويطلق على ميخائيل لومونوسوف لقب مؤسس الأدب الروسي الحديث ورائد المدرسة الكلاسيكية. فهو الذي أوجد الشعر الروسي الحديث الذي يعتمد على نسق منتظم من المقاطع المجزأة وغير المجزأة.

وفي الأربعينيات من القرن الثامن عشر ازدهرت المدرسة الكلاسيكية في روسيا تحت تأثير النماذج الغربية، وكان أصدق المعبرين عن مبادئها الكسندر ساماروكوف الذي كتب قصصاً ومسرحيات وأعمالاً هجائية وأغاني.

وكان أبرز شعراء القرن السابع عشر كافريل درجافين الذي يمثل شعره نقطة التحول من الكلاسيكية إلى الرومانسية.

وقد كتب كوربسكي أيضاً «سيرة إيفان»، ولكنها نشرت لأول مرة (1853). كذلك من نتائج النزاع الكبير الذي نشأ في الكنيسة الروسية، في منتصف القرن السابع عشر، أن رئيس القساوسة أفاكوم (مات شهيداً في 1688) ترجم لحياته في كتاب يعتبر أول مؤلف باللغة الروسية العامية.

ومهد بطرس الأكبر لظهور أدب روسي أصيل، بتشجيعه للثقافة بوجه عام، فأنشأ أول صحيفة روسية، كما أسس أكاديمية العلوم. وسعى الأمير أنطيوك كانتيمير (1708 – 1744)، عن طريق الترجمة، إلى التوفيق بين الأدب الروسي والفكر الغربي، فألف قصائده الهجائية باللغة الفرنسية أولاً 1749، ثم بالروسية 1762.

ولكن الأدب الروسي الحقيقي لم يظهر إلا في كتابات ترديا كوفسكي ولومونوسوف. كما بدأ المسرح الروسي بفضل جهود سوماروكوف. وكانت «الأمثال» من الأنواع الأدبية الرائجة، فكتب فيها سوماروكوف وخمنتسر، ولاسيما كريلوف، أما الأناشيد أو القصائد الغنائية، فقد طورها وهذبها ترديا كوفسكي، ولومونوسوف، وبلغت حد الكمال عند درجافين. وقد شجعت الإمبراطورة كاترين الثانية المسرح، فألفت هي نفسها مسرحيات، وظهرت في عهدها الكوميديات الروسية الهامة، مثل: «قائد اللواء» (766)، و«الشباب الآمل» (1782) بقلم دنيس ايفانوفتش فونفيتسين (1745 – 9217)، كما ظهر النقد الاجتماعي والسياسي في كتيب «في الأخلاق وتدهورها» الذي ألفه الأمير ميخائيل شربازوف (1733 – 1790)، وفي الصحف الهجائية التي نشرها نوفيكوف (1769 – 1774)، وفي كتاب راديتشيف: «رحلة من بطرسبرج إلى موسكو» (1790).

الكلاسيكية الجديدة والتنوير في الأدب الروسي

الكلاسيكية الجديدة والتنوير (1730 – 1790) رفض مبدعي الأدب الروسي في القرن الثامن عشر ميراث روسيا القروسطي ورجوعهم إلى النماذج الكلاسيكية حيث أنتجوا أدباً على غرارها. لكن لم تمثل هذه المقاربة الجديدة قطيعة جذرية فورية مع النماذج الأدبية التي كانت سائدة. فالكلاسيكية الجديدة تعاملت مع ما هو عام مشترك عند كل الشعوب وفي كل الأزمنة. وعلى هذا النحو كان ثمة عنصر عالمي مكون في الكلاسيكية الجديدة تساوق جيداً مع المنظور العالمي للثقافة المسيحية التي سبقتها: لم تعد القومية العنصر الأساس في الاستشراف الثقافي الروسي. إضافة إلى أن الأدب في مرحلة

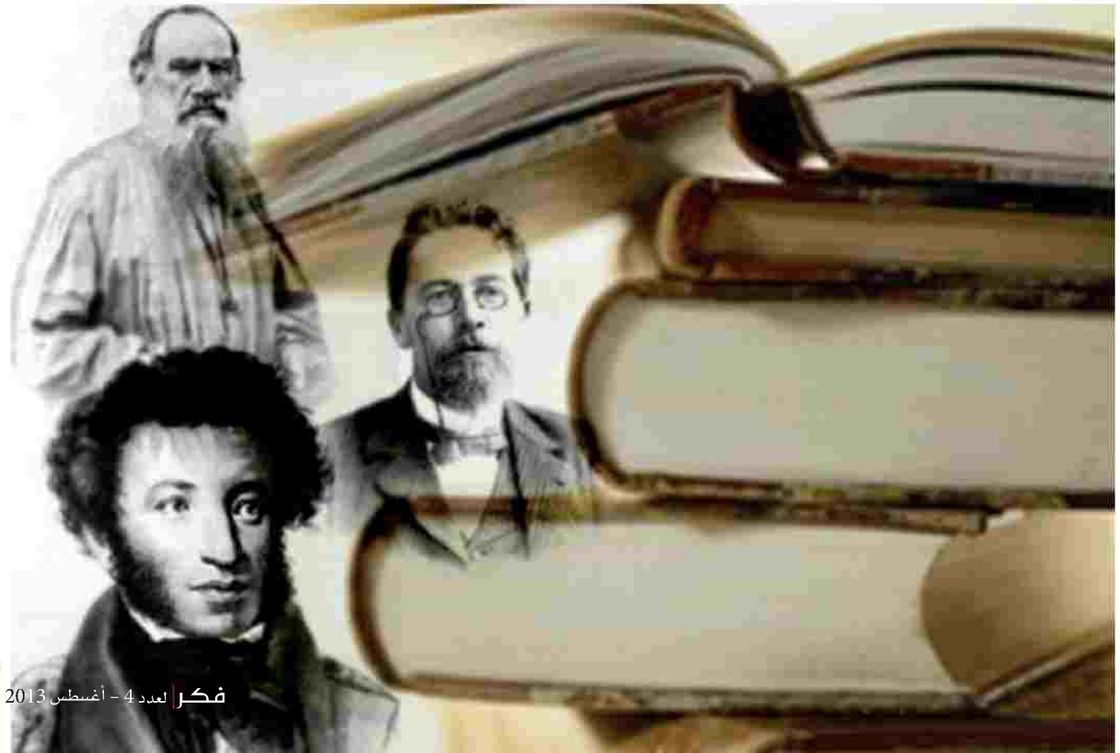

ايفان تورغينيف

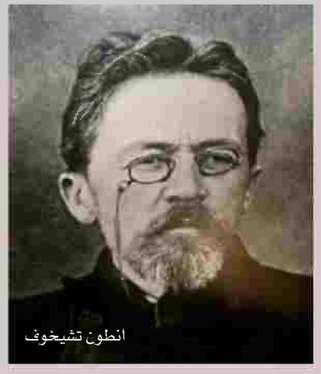
انطون تشيخوف

الكسندر اوستروفسكي

الكلاسيكية الجديدة قد طرح مسائل أخلاقية واجتماعية وقضايا تخص المجتمع بالإجمال وكانت من مشاغل واهتمامات الدولة. لم ير الكاتب من المناسب التحدث عن نفسه أو عن تجاربه الشخصية: صار نظره مرّكزاً على القضايا الكبرى. وفي الحقيقة كان عديد من كتاب القرن الثامن عشر من ذوي الشخصيات المتميزة بذكائها وتحصيلها، لكنهم لم يتحدثوا أو يعبروا عن أنفسهم مباشرة في كتاباتهم. بالتالي حاول الأدب في القرن الثامن عشر أن يكون مرشداً جدياً للمجتمع ككل في المسائل الهامة.

السنتمنتالية وبواكير الرومانتيكية

ويلاحظ عند الانتقال إلى العصر الحديث: السنتمنتالية وبواكير الرومانتيكية (1790 – 1820) أن الحراك الفكري قد بلغ ذروته في الانتفاضة الديسمبرية المجهضة في عام 1825، وأنه في تلك الفترة لم يكن ممكناً توجه قسم كبير من طاقات الأمة نحو الأدب.

في الإطار الأدبي ابتدأت هذه المرحلة مع عمل عكس بصدق التوترات في هذه السنوات الثلاثين الفاصلة المتميزة باضطراب وفوضى ثقافية حدث تحول عظيم في مقاربة الأدب للعالم عبر عنه بجدارة آرثر لوفجوي (مؤرخ أمريكي ومؤسس تاريخ الأفكار)عندما رأى أنه خلال سنوات الكلاسيكية الجديدة والتنوير تطلع إطار موحد جامع شامل لكل رجال الفكر والثقافة إلى معيار وحيد، إنسان ذي تفكير عقلاني. ثمة ظاهرة خاصة ميزت هذه المرحلة هي الحضور الواسع للحلقات الأدبية الرسمية وغير الرسمية، التي نشأت من وعي الكتاب الروس في أنهم معنيون ومنخرطون في مشروع ثقافي عام. وكانت هذه الصلات الشخصية هامة في إعداد الأرضية لتفتح أزهار الأدب الروسي في القرن التاسع.

وسادت الحروب أوائل القرن التاسع عشر، مما أدى إلى انتشار الرغبة في الإصلاح من ناحية، وإلى زيادة الوعي القومي من ناحية أخرى، ويظهر هذا الوعي القومي في كثرة الأناشيد القومية التي ألفها جوكوفسكي، وفي مسرحيات

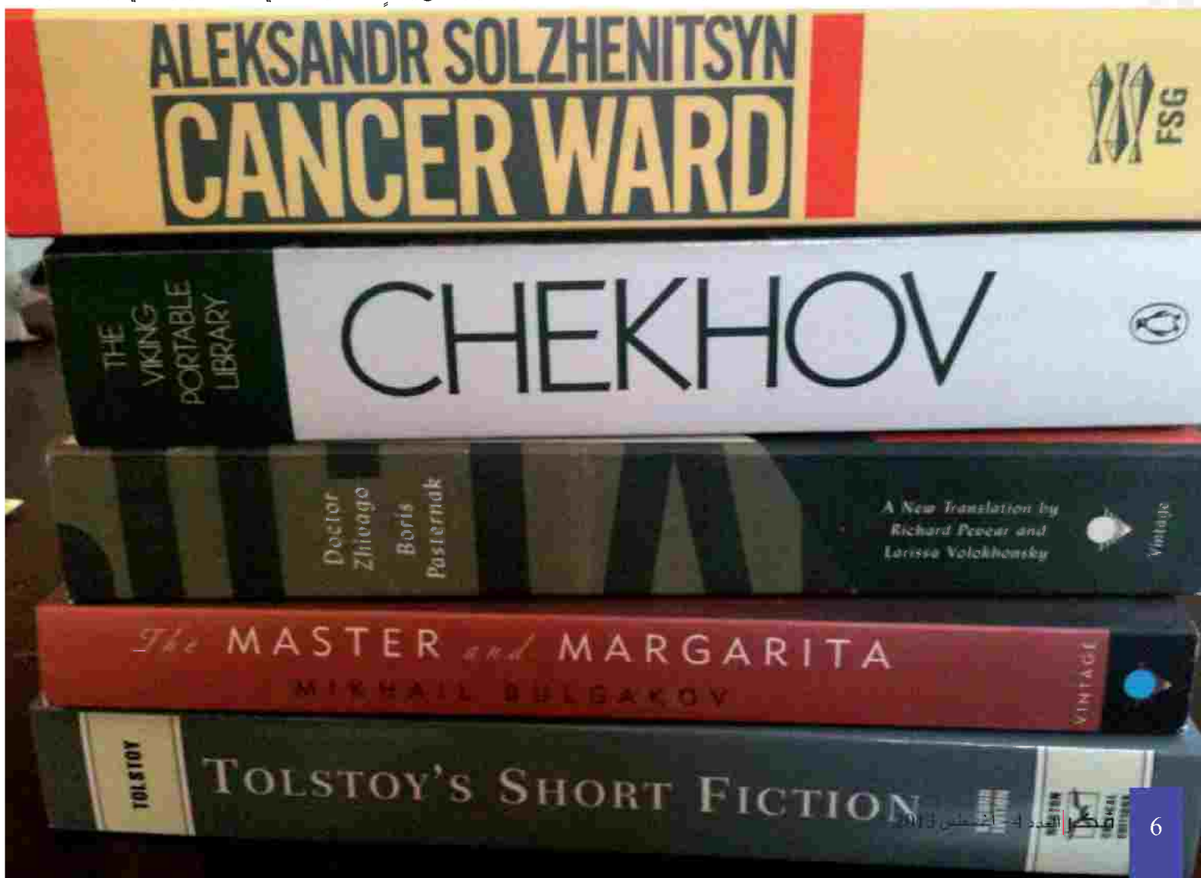

ليف تولستوي

الكسندر بوشكين

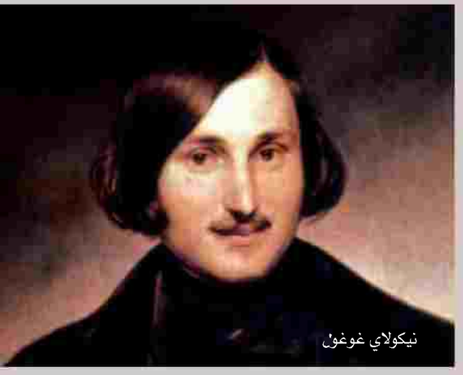
نيكولاي غوغول

فلاديمير الكساندروفتش أوزيروف (1770 – 1816)، ولا سيما مسرحية دمتري دونسكوي (1807). وهكذا أصبحت اللغة الروسية لغة أدب رفيع، بفضل جهود رواد الكتابة، أمثال: لومونوسوف، وكارامتسين، والشاعر الغنائي بانفوشكوف، والمترجم جوكوفسكي.

والواقع أن جوكوفسكي هو الذي نقل روح الحركة الرومانسية الأوروبية إلى الأدب الروسي، ولكن شاعر الحركة الرومانسية الروسية الأكبر هو بوشكين، وأشهر قصائده: (يوجين أونيجين)، وإن كان قد ألف أيضاً عدة قصص قصيرة، وروايات ومسرحيات، ويعتبر بوشكين عملاقاً بالقياس إلى معاصريه من الشعراء الروس، باستثناء ليرمونتوف الذي كان يصغره سناً، ومن أشهر كتاب العصر الرومانسي الشاعران: ايوجين ابراموفتش باراتنسكي (1800– 1844)، ونيقولاي ميخائيلوفتش يازيكوف (1803– 1846)، وكاتب القصص القصيرة بيستوجيف.

ذروة الرومانتيكية

كان القرن التاسع عشر: الرومانتيكية (1820 – 1840). حيث نرى أن العقود بين عامي 1820 و1840 شهدت ذروة الرومانتيكية الروسية، وكذلك المحطات الأولى للمرحلة العظمى في تاريخ الأدب الروسي التي امتدت تقريباً من عام 1820 وحتى الحرب العالمية الأولى. وقد بدأت الرومانتيكية الروسية مع تركيز قوي على الشعر. صارت الكلاسيكية الجديدة في حوالي 1820، وتحديداً عام 1825، من الماضي: برغم أن مقاربة بوشكين الأدبية احتفظت بعناصر كلاسيكية كثيرة، فإن هذه العناصر كانت قليلة أو نادرة عند غوغول وعند ليرمنتوف. فقد ركز الأدب الجديد على الروح الفردية، على الإنسان فوق العادي الذي كان بطريقة ما فوق المجتمع.

باختصار كان ثمة شيء ما يدعو إلى الإعجاب في البطل الرومانتيكي. وحصل تغير هام آخر خلال المرحلة الرومانتيكية في وضع الكاتب. في السابق لم يتوقع المؤلفون كسب عيشهم من كتابتهم، أو حتى الحصول على ما يشبه الدخل لقاءها، لكن الآن أصبح الأدب أكثر نوعاً من سلعة ذات قيمة في سوق. صار على الكاتب الآن من أجل إعالة نفسه أن يقدم نتاجاً يمكن أن يحظى باستحسان القراء ويدفعهم بالتالي لشرائه.

العشرية الروسية الأعجوبة

وكان القرن التاسع عشر: المدرسة الطبيعية وما استتبعها (1840 – 1855) أن أربعينيات القرن التاسع عشر تشغل مكانة خاصة في الذاكرة التاريخية للانتلجنتسيا لدرجة تسميتها بـ (العشرية الروسية الأعجوبة). فكان القسم الأعظم من هذه العشرية مرحلة بدايات فلسفية، ثقافية وأدبية عظيمة قطعها فجأة ما سمي تفجر ثورات عام 1848 الأوروبية واستمر مع تورط روسيا في حرب القرم وفي السنوات الممتدة من عام 1840 إلى عام 1855 المرحلة نرى سنوات عظيمة لسيادة الرومانتيكية إلى زمن الواقعيين الروس الذين أكسبوا الأدب الروسي شهرة عالمية.

احتل غريغوريفتش بيلينسكي – (1811 – 1848) وهو ناقد أدبي روسي معروف وفيلسوف، صاحب المدرسة الطبيعية في الفلسفة. كان له تأثير كبير على تطور الأدب والفكر الاجتماعي في روسيا– احتل مركز الصدارة في الميدان الفكري والأدبي في أربعينيات القرن. وكان هو الذي يقرر كيف ينظر في العمل الأدبي، ولعب بيلينسكي أيضاً دور مرشد لتلك الكوكبة من كتاب النثر الممتازين الذين ولجوا ميدان الأدب فيما بين 1840 و1848. فكان أول من قرأ عمل دوستويفسكي الأول، وكان صديقاً قريباً ومستشاراً أدبياً لتورغنيف.

وفي العقد الرابع من القرن التاسع عشر، ازدادت حدة النزاع الذي نشأ أيام بطرس الأكبر، وانقسم الفكر الروسي إلى معسكرين: معسكر يميل إلى الأخذ بالفكر الغربي، وآخر يحاول المحافظة على التراث القومي، وكان من نتائج هذا النزاع ظهور الحركة السلافية بين أتباع المعسكر الثاني. وعلى الرغم من أن هذه الحركة لم تتمخض عن كاتب كبير، فقد كان لها أثر عميق في كتابات ألكس ستيبانوفتش خومياكوف (1804 – 1806)، والأخوين كيريفسكي ايفان (1806 – 1856)، وبيتر (1808 – 1856) وايفان اكساكوف، وميخائيل كاتكوف، وأخيراً نيقولاي ياكوفلينفش دانيلفسكي (1822 – 1885) الذي يعد كتابه «روسيا وأوربا» (1869) خير تعبير عن موقف الحركة السلافية، أما المعسكر الذي حبذ الأخذ بالفكر الغربي فقد كان الناقد الكبير بلينسكي أعظم من عبر عن مبادئه. ولكن الأدب الروسي أخذ يسير في الطريق الذي يلائم عبقرية الروس، وهو طريق المدرسة الواقعية، ابتداء من كتابات غوغول، ولاسيما قصته القصيرة «المعطف» (1842). ومن مبادئ هذه المدرسة شعور الكاتب بمسؤوليته الاجتماعية، واتخاذه الشعب والفلاحين أولاً، ثم الطبقات الوسطى فيما بعد، موضوعاً لكتاباته، وكان أول من صنع ذلك في ميدان الشعر: نكرازوف، وفي ميدان النثر: غريغورفتش، الذي حذا حذو غوخاروف، وبيزمسكي، وسالتيكوف، وأخيراً الروائيون الثلاثة الكبار: تورجينيف، دوستويفسكي، ليو تولستوي. كما أن الواقعية في القصة القصيرة بلغت الذروة عند تشيخوف، وكانت أعظم المسرحيات الواقعية في هذا العصر مسرحيات تشيخوف وأوستروفسكي. ويعتبر هذا العصر بحق العصر الذهبي للأدب العالمي.

مكسيم غوركي

الكسندر بلوك

الكسندر كوبرين

فالينتين راسبوتين

ايفان بونين

الكسندر سولجنتسين

عصر الواقعية والحداثة وما بعدهما

في القرن التاسع عشر: عصر الواقعية (1855 - 1880) والنظر إلى عام (1855) بوصفه بداية مرحلة الأوج في تطور النثر الواقعي الروسي. وشهد العام نشر أطروحة تشيرنيشيفسكي (العلاقات الجمالية للفن بالواقع). تميزت السنوات الممتدة بين عامي (1855 و1880) بنضج كثير من جوانب الحياة الروسية.

وكان هذا القرن ما بين الواقعية والحداثة (1880– 1895) نرى أنه بعد الزخم القوي الذي أعطاه للأدب الروسي وازدهار الواقعية في الفترة - الممتدة من عام 1855 إلى عام 1880 كان من الكتاب الروائيين الروس الكبار دوستويفسكي الذي اشتهرت رواياته بالأوصاف الدراماتيكية للصراعات الداخلية، والتي تعاني شخصياتها من تنازع روحي عنيف بين إيمانهم بالله ومشاعرهم القوية المفعمة بالكبرياء والأنانية.

وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، ظهر رد فعل عكسي للاتجاه الواقعي في شكل الحركة الرمزية، التي بلغت أوجها في العقد العاشر من القرن، وذلك في نتاج سولوجوب، وبريسوف، وأنينسكي، وبلى، وبلوك، وبالمونت، ورمتسوف. ويتضح رد الفعل هذا أيضاً في مؤلفات فلاديمير سولوفيف، ذات الطابع الديني الفلسفي، وفي الروايات التاريخية لمريجكوفسكي.

ويصف لنا دوستويفسكي في الجريمة والعقاب (1866)، وهي روايته الأكثر إثارة، حالة أحد القتلة وهو يقاسي عذاب الضمير، ثم يسترد البطل حالته الطبيعية، عندما يعترف بجريمته ويرضى بالعقاب الذي يستحقه. ورواية الممسوس (1871-1872) والتي تُعرف أيضاً بالأبالسة، يصف لنا فيها الكُتّاب السياسيين المتطرفين. وفي رواية الإخوة كارامازوف (1879 – 1880)، وهي آخر روايات دوستويفسكي وأعظمها، يتحدث عن رجل شرير يقتله أحد أبنائه الأربعة. والصورة الرمزية التي يعرضها المؤلف عن نجاة الأولاد الآخرين من الخطيئة، هي إيمانه بالقدرة الإلهية على إنقاذ الناس من الخطيئة. وخضع تولستوي وهو أكبر كاتب روسي في الأدب القصصي أعظم رواياته في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر لأزمته الفكرية والروحية - فترة نشاط ثقافي أقل، على الرغم من أن أي عصر احتوى كُتاباً من مثل قامة تشيخوف لا بد أن يعتبر متميزاً. شهدت هذه المرحلة الانتقالية على الصعيد الأيديولوجي هيمنة تولستوي في أواخر حياته الذي انكب، بعد أزمته الفكرية - الروحية في عام 1879 - 1880، على الوعظ الأخلاقي في الأدب، ونبذ تولستوي القيم الرومانسية للبطولة والحب العذري وأظهر بدلاً من ذلك اهتماماً عميقاً بالمراحل الطبيعية للنمو البشري، كالولادة والزواج والوفاة. وروايته الرائعة الحرب والسلام (1869) جلبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسي لروسيا ونيرانه عام 1812. ولكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب وتكشف عن رغبة تولستوي في حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة. وفي أنّا كارنينا (1875-1877) هاجم تولستوي الحب الرومانسي باعتباره ضرباً من الانغماس الذاتي وشجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقي وحب الأسرة. أما روايته موت إيفان إيليتش فإنها صورة مرعبة لموت رجل، وقبوله لمصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة. وبقي لتولستوي حضور أدبي لبعض الوقت؛ أما الاهتمام الجديد في روسيا فكان من نصيب أنطون تشيخوف وهو من كتاب القصة القصيرة والمسرحية البارزين الذي نُعت بمؤرخ سيرة الطبقة الإقطاعية، وراصد حال الانتلجنتسيا وقد فقدت بشكل ما مراسيها.

ومعظم أعماله تتعلق بالسأم والإحباط من الحياة. وفي رواية لونيتش (1898) يورد تشيخوف قصة طبيب مثالي حساس، يصبح كسولاً ومعجباً بنفسه كلما تقدم في العمر. والعم فانيا (1899) مسرحية عن أحد المثقفين الذين يصيبهم الضياع، فيعيش حياة واقعية، بينما كان يعتقد بأنه يكرس نفسه للمثاليات. وتحكي الأخوات الثلاث (1901) قصة أسرة يتصف أعضاؤها بضعف شديد في الإرادة، بحيث لا يبذلون أي جهد لتحسين أوضاعهم المعيشية السيئة. ويبحث تشيخوف في بستان الكرز(1904) انحلال دور الأشراف أصحاب الأرض.

وفي 1912 نشأت حركة في الشعر، تزعمها جوميليف، وجورودیتسكي، ترمي إلى العودة إلى الصور الشعرية الحسية المحدودة، ومن أتباع هذه المدرسة الشاعران: ماندلستام، وأخماتوفا. ومن الروائيين البارزين الذين جاؤوا بعد العصر الذهبي للرواية: جارشين، كورولينكو، ولكن أبرزهم جميعاً: مكسيم غوركي آخر الأدباء الروس الكبار من الواقعيين والذي تعكس أعماله الأدبية المبكرة فلسفته الشيوعية، والذي أدخل نغمة ثورية في المدرسة الواقعية. وتتضح هذه النزعة الثورية أيضاً في مؤلفات تلميذه ليوفيت أندرييف من قصص ومسرحيات، على حين أن ايفان بونين الذي كان ينتمي أيضاً إلى حلقة غوركي، والذي نال جائزة نوبل، ظل محافظاً على الأسلوب الواقعي التقليدي.

وفي روايات ومسرحيات وقصص مكسيم غوركي، وهو يصف الفقر المدقع الذي تعاني منه الطبقات الدنيا. وأشهر مسرحيات غوركي الأعماق الدنيا (1902) التي يفرغ فيها المؤلف الحياة البائسة التي يعيشها ساكنو أحد الملاجئ في قالب مسرحي. وكثير من الأفكار الرئيسية لأعمال غوركي المتأخرة كانت تتضمن انحلال الطبقة المتوسطة العليا، كما نشاهد ذلك في رواية أعمال الأرتاماتوفيين ((1925كذلك كتب غوركي سيرته الذاتية المفصلة ونشر مذكراته حول من التقى بهم وصادقهم من كبار الكتاب الروس.

وكان لهذا القرن تيار الحداثة (1895– 1925) نشهد هيمنة تيار الحداثة وعدد آخر من المذاهب صاغها وأنشأها كتاب نظروا إلى الثقافة ككينونة تبدعها العقول الإنسانية. وعندما سادت الحداثة في أشكالها المختلفة احتلت المسرح لبعض الوقت حتى بعد الزلزالين السياسيين المتمثلين بالحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر. فأدب المرحلة الأولى من العشرينيات، الذي تعاطى مع هذين الحدثين، بقي حداثياً في مقاربته حتى حدود عام 1925. وبدأ عصر الحداثة كتمرد واضح ضد الميراث المادي لستينيات القرن التاسع عشر.

انقسم الأدب الروسي في مطلع عشرينيات القرن العشرين إلى شقين هامين لكن غير متعادلين، هما الواقعية والرمزية، ودون أن تكون لأي منهما قوة كافية كي تسود على الأخرى.

عصر الواقعية الاشتراكية

تمثل الثورة الشيوعية عام 1917 بداية عصر جديد في الأدب الروسي، فقد أحكمت الرقابة على الأدب، وهاجر كتاب كثيرون مثل: بونين، وكوبرين، ومرجكوفسكي، وألدانوف، وسُجِنَ وأُعْدِمَ كثيرون غيرهم، وسيطرت الدولة والحزب على المطابع والصحافة.

وكان عصر الواقعية الاشتراكية (–1925 1953) حيث نرى أنه إذا كان العام الذي تبدأ به هذه المرحلة - 1925 - ذا أهمية أدبية وسياسية، كعام فرض فيه النظام الشيوعي القائم حديثاً سلطته على الأدب والثقافة، فإن تاريخ نهايتها (أي المرحلة) ذو أهمية سياسية بالدرجة الأولى: فهو العام الذي شهد موت جوزيف ستالين والمفصل التاريخي السياسي المناسب تماماً لاختتام هذه المرحلة من الأدب الروسي التي ترابط فيها الأدب والسياسة معاً بشكل وثيق أكثر من أي وقت على امتداد تاريخ الأدب الروسي. أحدثت الضغوط السياسية في الفترة الأولى من الحكم السوفياتي انقسام الأدب الروسي إلى شطرين قسم رئيس داخل الاتحاد وقسم آخر اختار الهجرة إلى خارج البلاد. في تلك الأثناء عانى كثير من الكتاب الموهوبين من القيود الثقافية الشديدة في السنوات الأخيرة من العشرينيات.

وفي العشرينيات من القرن العشرين خففت الدولة من قبضتها الصارمة، وظهرت مجموعة جديدة من الشعراء والروائيين تُدعى رفاق السفر، من أهم أعضائها كاتب القصة إيزاك بابل والروائيان ليونيد ليونوف وألكسي تولستوي. ولكن الدولة فرضت على الكتاب أن يخدموا أغراضها، فظهرت روايات المصانع مثلاً، مع بدء الخطة الخمسية الأولي عام 1928.

وفي الثلاثينيات حظرت الحكومة نشاط جميع الجمعيات الأدبية، وأنشأت اتحاد الكتاب السوفيات الذي ابتدع نظرية الواقعية الاشتراكية، وطرد من الاتحاد كل من لم يلتزم بهذه النظرية. وازدهرت الرواية التاريخية في تلك الفترة، ومن أفضلها الرواية الملحمية «وبهدوء يتدفق الدون» (1928 - 1940) لميخائيل شولوخوف. وأثناء الحرب العالمية الثانية، مُنح الكُتّاب قدراً أكبر من الحرية وظهرت روايات وطنية، منها أيام وليال لقسطنطين سيمونوف.

خففت القيود مرة أخرى بعد وفاة ستالين، ولكن الرقابة الصارمة عادت بعد نشر رواية ألكسندر سولزنتسين يوم في حياة إيفان دنوسوفيتش (1962) وفي الستينيات، برزت مجموعة من الكتاب الشبان المتحررين ومنهم الشاعر يفجيني يفتشينكو.

وبسبب الرقابة والقيود كانت بعض الأعمال الأدبية تُتداول سراً على شكل مخطوطات، ونشر بعضها خارج الإتحاد السوفياتي السابق مثل رواية دكتور زيفاجو.

ومن الأعمال التي نُشرت في الخارج قصص وروايات أندريه سنيافسكي، الذي استخدم اسم أبرام ترتز، وأعمال سولجينتسين الذي منح جائزة نوبل للأدب عام 1970 ونفي من الاتحاد السوفياتي عام 1974.

ورغم القيود السياسية في السبعينيات استمر عدد من الأدباء في انتقاد المجتمع السوفياتي، وفضح ما فيه من أنانية ونفاق. وفي منتصف الثمانينيات وحتى أوائل التسعينيات من القرن العشرين تضاءلت الرقابة إلى حد كبير في ظل سياسة الانفتاح (الجلاسنوست)، التي تبناها ميخائيل غورباتشوف، ونُشرت لأول مرة بعض الأعمال الأدبية المهمة، التي كانت محظورة في السابق. وبتفكّك الاتحاد السوفياتي عام 1991 إلى دول مستقلة، انتهى عهد الأدب السوفياتي.

الأدب الروسي في ثمانينيات القرن العشرين:

عشية انهيار الدولة السوفياتية، الذي قسم عقد ثمانينيات القرن العشرين إلى نصفين متساويين. وفيها كان يقال إن روسيا السوفياتية هي البلاد ذات العدد الأكبر من القراء. حيث واصل كتاب كثر إبداع أدب أصيل. وبرغم أنهم كانوا متشككين بخصوص المستقبل، وخاطروا بفقد حريتهم وحتى حياتهم، فإنهم خطوا كتباً وفق ما أملته ضمائر واحتفظوا بها في الأدراج بانتظار أيام أفضل. وفي نهاية الثمانينيات تداعت فجأة جدران الرقابة التي صمدت راسخة لسبعين عاماً وصار بالإمكان قراءة ونشر كل الأدب الروسي، وحتى الذي كان ممنوعاً لسنوات طويلة.

أشهر كتاب الرواية الروسية

فيودور دوستويفسكي

يتمتع الكاتب الروسي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (1821 – 1881) بشهرة عالمية واسعة. وقد ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات وأصبحت أفكارها وشخصياتها جزءاً من تراث البشرية الروحي. أن أثمن ما في تواثه هو رواياته. وقد اشتهرت في العالم بصفة خاصة روايتا (الجريمة والعقاب) و(الأخوة كارامازوف) اللتان عبرتا بأكمل صورة عن فلسفة الكاتب. بيد أن رواياته الأخرى (مذلون ومهانون) و(الأبله) و(الشياطين) و(المراهق) على جانب كبير من الأهمية والطرافة. كان دوستويفسكي إنساناً أبياً وعنيداً في الدفاع عن معتقداته، وقد ترك ذلك كل بصماته على أعماله. ولد فيدور دوستويفسكي في 11 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1821 بموسكو. انبهر بالطموحات المثالية للكاتب الألماني شيلر، وأحب روايات ديكنز الذي كان يجيد إثارة العطف على الناس المهانين. وكانت قريبة إلى نفسه تعرية التناقضات الاجتماعية في أعمال بلزاك الذي ترجم له فيودور دوستويفسكي رواية (اوجين غراندي) قبل عامين من إصداره لأول عمل أدبي هو رواية (المساكين) عام 1846 التي نشرت في مجلة (سوفريمينيك) المعاصر وأقبل عليه القراء بتهافت قوي. كان فيودور دوستويفسكي يعيش آنذاك في بطرسبورغ حيث تخرج من كلية الهندسة، لكنه لم يلتحق بالوظيفة، إذ لمس في نفسه أنه أديب بالفطرة. وتعرف فيدور دوستويفسكي عن قرب بالناقد الروسي البارز فيساريون بيلينسكي الذي كان يتزعم كوكبة الجريمة والعقاب من الأدباء الشبان من أنصار ما يسمى بـ (المدرسة الطبيعية) وهي التسمية التي اصطلح آنذاك على إطلاقها على أدباء الاتجاه الواقعي. ثم توالت بعد رواية (المساكين) أعمال الكاتب الأخرى (المثل أو الشبه) و(ربة المنزل) و(الليالي البيضاء) التي كشفت عن جوانب جديدة من موهبته لكنها لم تجلب له اهتمام الناس. انضم فيودور دوستويفسكي إلى حلقة (زملاء بيتراشيفسكي) الذين أسسوا جماعة شبه سرية. وتمكنت الشرطة من تتبع الجماعة حتى ألقت القبض على أعضائها في ربيع عام 1849. وحكم على دوستويفسكي بالإعدام، لكنه في آخر لحظة وقبل تنفيذ حكم الإعدام بحقه صدر مرسوم قيصري يقضي باستبدال الإعدام بأربعة أعوام من الأعمال الشاقة في مقاطعة اومسك بسيبيريا. وعايش دوستويفسكي عملياً وهو واقف على منصة الإعدام ويتدلى فوق رأسه حبل المشنقة، عايش طقوس تنفيذ حكم الإعدام التي ضلت تلازمه طوال حياته، وقد وصف هذا المشهد الرهيب في روايته (الأبله).

وقد وصف حياته وهو يقضي حكم الأعمال الشاقة في كتابه (ذكريات من منزل الأموات). أولع هناك بلعب القمار، الأمر الذي جعله يواجه دوماً حاجة ماسة إلى الأموال واضطره إلى عقد صفقات غير عادلة مع أصحاب النشر والطباعة لإصدار رواياته. عاش دوستويفسكي الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته في مدينة ستارايا روزا بمحافظة نوفغورود بشمال غرب روسيا. وتعد هذه المرحلة مثمرة في نتاجه الأدبي حين أبدع روايات (الشياطين) عام 1872 و(المراهق) عام 1875 و(الأخوة كارامازوف) عام 1880. وذاع صيته في روسيا كلها وخاصة بعد إلقائه كلمة مشهورة في مراسم افتتاح تمثال الشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين في موسكو. لكن المجد الحقيقي وإكليل الغار نزلاً على دوستويفسكي بعد وفاته. واعترف الفيلسوف الألماني المعروف فريدريك نيتشه أن دوستويفسكي كان بالنسبة له سيكولوجيا وحيداً جديراً بالتعلم منه. يتصارع في عالم دوستويفسكي الفني الخير مع الشر والحقيقة مع الزيف. ومضمار هذا الصراع هو قلب الإنسان على حد تعبير إحدى شخصيات روايته (الأخوة كارامازوف).

للمشاهدة: دستويفسكي (الجزء الأول) إضغط هنا
ولمشاهدة (الجزء الثاني) إضغط هنا
ولمشاهدة دوستويفسكي والبحث عن أجوبة للأسئلة الأزلية

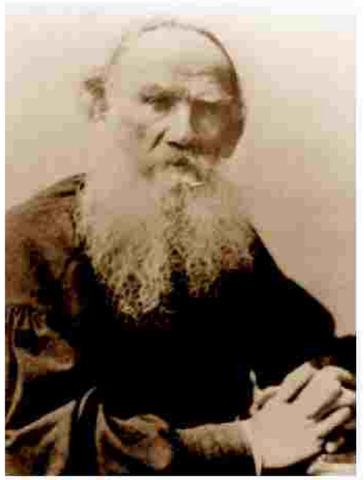

ليف تولستوى

ولد الكونت ليف تولستوى في عام 1828 في ياسنايا بوليانا، وهي ضيعة صغيرة تمتلكها عائلته الأرستقراطية قرب موسكو. توفي والداه عندما كان صبياً صغيراً، وتولت خالته تربيته. وقد تلقى تولستوي تعليمه الابتدائي على يد مدرسين خصوصيين أجانب. في عام 1844 إلتحق تولستوي بجامعة قازان، إلا أنه سرعان ما ضَجِر من طريقة التدريس، فترك الدراسة عام 1847 قبل أن يتخرج، وعاد إلى مسقط رأسه. بدأ تولستوي ينهل من مصادر العلم والمعرفة بدون مساعدة أحد. في عام 1851 سافر إلى القوقاز حيث شارك في الحرب القوقازية. وألف هناك روايته الأولى (الطفولة) التي استند فيها على ذكرياته شخصية. وبعد فترة تابع كتابة سيرته الذاتية مؤلفاً روايتين وهما: (الفتوّة) و(أيام الشباب). أثرت فيه النتائج المأساوية للحرب. وحقق الشهرة لدى نشر مقالاته عن حرب القرم تحت عنوان (قصص من سيفاستوبول). يأخذ موضوع الحرب اهتماماً كبيراً في مؤلّفاته وخصوصاً في أشهر رواياته (الحرب والسلام) التي كتبها في أعوام 1863- 1868. وهي ملحمة تاريخية تغطي الحوادث السياسية والعسكرية في أوروبا فيما بين الأعوام 1805 و1820، ويتناول فيها تولستوي غزو نابليون لروسيا عام 1812. وأنجز تولستوي في عام 1877 رائعته الثانية (أنا كارنينا) التي عالج فيها قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية تصور مأساة امرأة وقعت في أسر العواطف الجامحة. ويعري فيها الكاتب الأسس العائلية الزائفة لمجتمعه. تتربع الروايتان (الحرب والسلام) و (أنا كارنينا) على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية. ويبرز تولستوي فيهما كروائي ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر. في عام 1862 تزوج تولستوى من صوفيا اندرييفنا بيرس، وأحال نفسه إلى التقاعد. بعد أن ترك الجيش، قام تولستوى بعدة رحلات إلى غرب أوروبا، عكف فيها على تعلم أساليب التدريس، وطرق التربية. وعند عودته إلى ضيعته، افتتح مدرسة لأولاد الفقراء، كان التعليم فيها معتمداً على الأساليب التربوية التي تعلمها تولستوي خلال رحلاته. كما أنشأ مجلة تربوية بعنوان (ياسنايا بوليانا) طرح فيها أفكاره التربوية ونشرها بين الناس. تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما. لكن الكنيسة لم تقبل آراء تولستوي التي انتشرت بسرعة، فكفرته وأعلنت حرمانه من رعايتها. وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركًا عائلته الثرية المترفة. وهو كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب (مملكة الرب بداخلك) وهو العمل الذي أثر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج في جهادهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف. وأشهر أعماله التي كتبها في أواخر حياته كانت (البعث) وهي قصة كتبها وتليها في الشهرة قصة (الشيطان) ورواية (الميت الحي) ومسرحية (سلطان الظلام) وروايات (كريتسيروفا سوناتا)، و(الحاج مراد) و(وفاة ايفان ايليتش) وقصة (الأب سيرغي) والتي توضح عمق معرفته بعلم النفس، ومهارته في الكتابة الأدبية. وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال. في 20 تشرين الثاني/نوفمبرعام 1910، توفي تولستوي في قرية استابو حين هرب من بيته وحياة الترف، وأصيب بالالتهاب الرئوي في الطريق، وكان قد بلغ من العمر 82 عاماً. ودفن في حديقة ضيعة ياسنايا بوليانا بعد أن رفض الكهنة دفنه وفق الطقوس الدينية الأرثوذكسية.

لمشاهدة: ليف تولستوي (الجزء الأول) إضغط هنا
ولمشاهدة (الجزء الثاني) إضغط هنا
ولمشاهدة أفكار تولستوي.. إضغط هنا

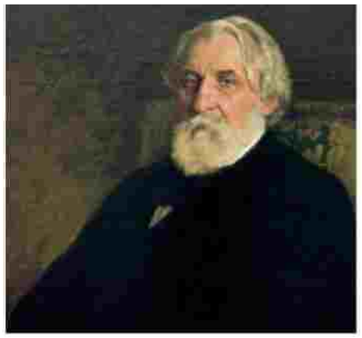

ايفان تورغينيف

ايفان تورغينيف هو كاتب روسي مشهور عالمياً ومؤلف الروايات والقصص والأشعار التي عكست حياة شتى فئات المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر ابتداءً من الفلاحين وانتهاءً بالنبلاء. ومن أشهر رواياته (الآباء والبنون) عام 1862 و(عش النبلاء) عام 1859، كما أنه اشتهر بقصصه مثل (مذكرات صياد) عام 1852 و(مومو) عام 1854. ولد تورغينيف في 28 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1818 بمدينة اوريول. أمضى ايفان تورغينيف طفولته في ضيعة أمه سباسكويه – لوتوفينوفو وتعلم على أيدي أساتذة من مختلفة القوميات ما عدا القومية الروسية. درس في كلية الفلسفة والآداب بجامعة بطرسبورغ التي أنهاها عام 1837. ونشر أول قصيدة له عام 1838. درس تورغينيف من 1838 – 1840 في جامعة برلين حيث تعلم على الفلسفة واللغات القديمة. وصدر عام 1843 أول ديوان شعري له وقعه بحرفي /ت/ و/ل/ ، نسبة إلى عائلتي أبيه تورغينيف وأمه لوتوفينوفا. تعارف تورغينيف عام 1845 على المغنية الفرنسية بولينا فياردو غارسيا التي ترجم زوجها مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية وحافظ على العلاقة الوثيقة بعائلتها على مدى 38 سنة. وقطعت عنه أمه الدعم المالي لعلاقته بهذه المغنية (الفجرية الملعونة) على حد تعبيرها. وغادر تورغينيف مع عائلة فياردو روسيا عام 1847 وأقام بفرنسا حيث كان يواجه مشاكل مالية، ولم يعد إلى الوطن إلا بعد موت أمه عام 1850. فتقاسم الشقيقان تورغينيف تركة كبيرة خلفتها أمهما. ومنح ايفان تورغينيف الحرية للفلاحين الاقنان في ضيعته. ثم عاد إلى الغرب حيث انضم في السبعينيات إلى الحلقة الأدبية التي كان كل من كبار الكتاب الفرنسيين الواقعيين مثل ألفونس دوديه وأميل زولا وجوستاف فلوبير والأخوان غونكور أعضاءً فيها. وانتخب تورغينيف عام 1878 نائباً لرئيس المؤتمر الأدبي الدولي في باريس، الأمر الذي اثبت شهرته الأوروبية. وترجمت معظم مؤلفاته إلى اللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية. فيما لم ترحب السلطات الروسية أولا بنزعته الأدبية المحبة للحرية. وتم سجنه لمدة شهر عام 1852 لنشره رثاء بمناسبة وفاة الكاتب الروسي نيكولاي غوغول، الأمر الذي جعل الرقابة الحكومية تفرض حظراً عليه. وأرسل إلى ضيعته حيث أمضى عامين، ثم هاجر إلى أوروبا. ومنذ ذلك الحين عاش تورغينيف مرة في روسيا ومرة في الخارج حتى استقر بعد ذلك في مدينة بادن بادن السياحية الألمانية. ومنها أخذ يزور الوطن من وقت إلى آخر. إلا أن نهوض حركة التحرر في روسيا وتحرير الفلاحين الاقنان عام 1861 وتطور الحركة الأدبية في العاصمتين الروسيتين بطرسبورغ وموسكو أجبرت السلطات والنقاد الأدبيين على الاعتراف بالدور الكبير الذي يلعبه تورغينيف في حياة روسيا الأدبية وخاصة بعد نشره لمجموعة القصص (مذكرات صياد) حيث وصف حياة الفلاحين بأسلوب واقعي ورومانسي في آن واحد، وكذلك الروايات (الاباء والبنون) و(عش النبلاء) و(رودين) و(في العشية) و(دخان) وعدد من المسرحيات حيث عرض من خلال إبداعاته هذه وجهاً آخر لروسيا حيث لا يسود فيها النبلاء فقط كما هو الحال في السابق بل وممثلون عن فئات المجتمع الأخرى. كان تورغينيف يحس إحساساً حاداً بالبون بين المستوى الرفيع لفكر المثقفين التقدميين من جيله وبين تخلف روسيا التي كانت بحاجة إلى تحولات اجتماعية جذرية. لذلك لا نجد في رواياته حلولاً لجميع التساؤلات والتناقضات. فقد كان تورغينيف يرى أن واجب الفنان لا في أن يعلم بل في أن يفهم الحياة ويعبر عنها في إبداعه الفني. تذكر تورغينيف في آخر مرحلة حياته ولعه بالفلسفة أيام شبابه فعكف على كتابة القصائد الفلسفية النثرية التي عبر فيها عن موقفه من الحياة والمجتمع المحيط به والمحبة والموت والطبيعة. توفي ايفان تورغينيف في 22 آب/أغسطس عام 1883 في بلدة بوجيفال بضواحي باريس بعد إصابته بمرض سرطان العمود الفقري. وقبل وفاته ترك وصية بان يدفن في روسيا. وبناء على ذلك نقل جثمانه إلى مدينة بطرسبورغ حيث دفن بمقبرة فولكوفو.

لمشاهدة: ايفان تورغينيف (الجزء الأول) إضغط هنا
ولمشاهدة (الجزء الثاني) إضغط هنا